الدرس 2 : اتجاهات الرواية العربية / الرواية التاريخة .

دعني أتحفظ على مصطلح " الرو اية التاريخية "

أدعو إلى تعليق استخدام المصطلح وإطلاق مصطلح " التخيل التاريخي " .

عبد الله إبراهيم

لقد ظلت الرواية بمختلف الأصناف جنسا أدبيا لا يخضع لحد أو تحديد ، وقد صارت أكثر الأجناس الأدبية انتشارا في العصر الحديث ، وقد وصف عصرنا بأنه عصر الرواية بلا منازع ، قد اتسمت بالانفتاح على كل الفنون و الحقول ما جعل تصنيفها إلى تصنيفات مضمونية أو شكلية ممكنا، من أصناف الرواية التي سنعرض لها الرواية التاريخية ، الرواية الواقعية، الرواية الوجودية، والرواية النفسية.

1/علاقة الرو اية / التاريخ :

سنطرح هنا مع (**محمد القاضي**) سؤال العلاقة بين الرواية والتاريخ، باعتبار التاريخ خطابا سابقا للرواية من جهة وباعتباره خطابا تتحدد مقروئيته من حيث هو انعكاس لأحداث وقعت في زمن مضى ونقل لها على نحو موضوعي من جهة أخرى ، وإن يكن ذلك محل جدل ونقاش فكيف تفصح الرواية بما هي خطاب تخييلي عن صلتها بهذا الخطاب المرجعي.؟ وما هي الآليات التي تتوسل بها لتعيد صياغة هذا الخطاب وتزحزحه عن موقعه.

إن الرواية تبوأت مكانة رفيعة في أدبنا العربي الحديث وهي أصلح من غيرها للتوغل في المناطق المعتمة والغامضة لكي تكشف ما يحتاج اليه المجتمع من كشف، ..أما لماذا التاريخ

فذلك لان الأمم في المنعطفات الحاسمة من تاريخها، تطرح على نفسها سؤال التاريخ والاهتمام بالتاريخ لا يراد منه الارتماء في أحضان الماضي، واللواذ به وإنما استخلاص العبرة.

غير أن للمسألة وجوها أخرى تغري بالنظر وتدعو إلى التقصي فالتاريخ شأنه شأن الرواية خطاب سردي ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه فإنه يظل خطابا منجزا في مقام محدد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته، وكذا الشأن بالنسبة إلى الرواية فهي وإن بدت لنا خطابا تخييليا لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما . ومن هنا تتخذ الصلة بين الرواية والتاريخ صورا متعددة .

2 / نشأة الرو اية التاريخية :

ازدهر هذا النوع من الرواية أثناء القرن السادس عشر ، وذلك كمعظم الأنواع السردية الأخرى، في وقت كانت السلطة السياسية آيلة إلى البرجوازية مع العلم أن التاريخ لم يعالج في أوروبا على أنه علم من العلوم إلا خلال القرن الثامن عشر .

ولكن مع اندلاع الثورة الفرنسية شعر القائمون عليها بأنهم حقا أصحاب تاريخ وفاعلوه فتغيرت الرؤية التقليدية في أوروبا إلى طبيعة هذا التاريخ وماهيته ووظيفته جميعا . ولعل بعض هذه المفاهيم والأفكار هي التي ستعرض لها الرواية التاريخية إذ سنلفيها تركز على معالجة علاقة فرد ما بالقياس إلى التاريخ ، ذلك لان الحركية الاجتماعية وتصارع الطبقات هي التي تولد أوضاعا درامية .

لكن الرواية التاريخية بمعناها الاصطلاحي لم تظهر في الغرب إلا مطلع القرن التاسع عشر مع **والترسكوت** (1832/1771) ، خاصة حين ظهرت روايته (Waverley)، حيث وفق في الجمع بين الشخصيات الواقعية ، والشخصيات المتخيلة ، وأحلها في إطار واقعي ، وقد تزامن مع ظهور الرواية التاريخية مع الحركة الرومنسية التي احتفل أصحابها بالبطولات القومية وسعوا إلى إبرازها متوسلين بها إلى إحياء روح الشعب وإنعاشها . ومعنى هذا أن كاتب الرواية التاريخية وإن غلب الجانب المتخيل على الجانب المرجعي مطالب بأن ينزل الشخصيات والأحداث في إطار زماني

ومكاني قوامه المشاكلة وبذلك " يتيح للقارئ أن يدرك أسباب ما وقع ماضيا وما يترتب عليه من نتائج ، من ثم فإن الرواية التاريخية تعد أكثر صحة من التاريخ ، وإن شئنا قلنا إن الرواية التاريخية صحيحة على نحو مغاير ".

وكان من العسير على الرواية أناء القرن التاسع عشر الجنوح عن هذا المسار الذي كان **ولتر سكوت** رسمه، ولعل الروائيين كانا لا يبرحون منبهرين بالنجاح الأدبي الكبير الذي وقع لشيخ الرواية التاريخية ومؤسسها ،فهموا بالمضي على حجته طمعا في بعض تلك الشهرة منهم **بالزاك وفينيي وسطندال وفكتور هيجو وفلوبيرو ايميل زولا و أناطول فرانس** ...

وقد اختلفت معالجة التاريخ من روائي إلى آخر، ولعل الرواية التاريخية ازدهرت كل هذا الازدهار الذي بلغ أوجه لأنها عمدت إلى تحليل الأحداث التاريخية والاجتماعية يشكل فني بارع .

3/ الرو اية التاريخية العربية:

يذهب بعض الدارسين إلى أن التاريخ المقدم في صورة روائية لم ينتظر القرنين التاسع عشر والعشرين ليثبت وجوده في الأدب العربي فلدينا في القديم روايات عنترة وسيف بن ذي يزن وبني هلال والجازية ...ويلحق بالسير والقصص الشعبية أشكال سردية ضاربة في القدم لعل أبرزها على الإطلاق أيام العرب حيث اهتم رواته بذكر الوقائع التي كانت تدور بين القبائل العربية المنبثقة عن القرون الوسطى بقدر ما تمثل نباتا مأخوذا من تربة أوروبية أعيد غرسه في حقل عربي.

وقد كان ظهور هذا الفن في الأدب العربي في منتصف اقرن التاسع عشر وأول من حاول محاولة كبير في هذا اللون كان (**سليم البستاني**) وكانت قصته الأولى هي (زنوبيا) التي أصدرها سنة 1871، ثم توالت الروايات التاريخية فكتب **البستاني** (بدور) 1872، و" (الهيام في فتوح الشام) " 1874 ، وكتب **جرجي زيدان** سلسة روايات تاريخ الإسلام (1941/1891)..

لابد لمن يهتم بالرواية أن يضع **جورجي زيدان** في مقدمة كتاب الرواية التاريخية ، فقد كتب أربعا وعشرين رواية في أربع وعشرين سنة ، وكان يريد من تجربته في هذا المجال أن يغطي حقب التاريخ الإسلامي حتى بداية القرن العشرين، وفي معظم رواياته كان يشير إلى أنه في سبيله إلى تفريغ التاريخ في رواياته وبقي وفيا لعهده حتى وافته المنية .

ولا يمكن الحديث عن رواية تاريخية عربية دون الإشارة إلى **جورجي زيدان** ، وستظل إشكالية هل هو روائي أو مؤرخ؟ فهذه قضية مثار جدال منذ قرن تقريبا، يريد **زيدان** أن تكون الرواية وسيلة لتقريب التاريخ إلى القراء، ولهذا فإن وظيفة الكتابة لديه ذات منحى تاريخي وهذا مناقض لما قال به **والتر سكوت وأكسندر دوماس** اللذان ذهبا إلى أن الرواية ينبغي أن تحكم التاريخ وليس التاريخ هو الذي يحكم الرواية، لكن هذا الإعلان المتواصل والتاريخ المستمر يكشف لنا التباس مفهوم الرواية والتاريخ في ذهنه.

4/الرو اية التاريخي / التخيل التاريخي:

لم يعد مصطلح " الرواية التاريخية " قادرا على الوفاء بالحاجات التي نشأ من أجلها منذ جرى إبطال الثنائية المتوازية بين المتوازية بين المادة التاريخية والمادة المتخيلة التي اقترحها **جورجي زيدان** في نهاية القرن التاسع عشر ، وصار من الضروري تعليق استعماله بعد أن أدى الغرض المطلوب منه ، وتفرض الحاجة إلى استخدام مصطلح " التخيل التاريخي" ، وإن تبني مصطلح " التخيل التاريخي " يساعد في نقل الكتابة السردية من موقع جرى تثبيت حدوده بصرامة مدرسية الى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على الماضي والحاضر بالدرجة نفسها من الحرية والاهتمام .

التخيل التاريخي شكل من أشكال النوع السردي ، لا يوجد هناك كاتب انصرف إليه مئة بالمئة، هناك كتاب ذوو نزعة في الإفادة من المادة التاريخية ، منهم **واسيني الأعرج**، فكثير من رواياته تقوم على خلفيات تاريخية لها صلة بتاريخ الجزائر أو الأندلس أو التاريخ العربي الحديث، وهناك **جمال الغيطاني** الذي استلهم أحداثا لها صلة بالعصور المتأخرة، **ونبيل**

سليمان من سوريا و **إبراهيم الكوني** من و **إبراهيم الفقيه** من ليبيا ، و**المسعدي** من تونس ، **وفؤاد التكرلي** من العراق، **وحبشي الأشقر** من لبنان دون أن ننسى **نجيب محفوظ**.

مراجع الدرس:

-محمد القاضي : الرواية والتاريخ (دراسات في تخييل المرجعي) .

- عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية .

-عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد).